

الفتح الرباني في تفسير السبع المثاني

عناصر الخطبة:

مقدمة

من فضائل سورة الفاتحة.

مجمل ما تضمنته السورة

تفسير السورة مع بعض الفوائد المتعلقة بالآيات.

أولاً مقدمة: أيها الإخوة المسلمون: بين يدي الأمة سورة عظيمة ترسم طريق الهداية وسبيل النجاة، بل تحوي مجمل مقاصد القرآن العظيمة، ومعانيه العالية، من الحكم العلمية، والأحكام العملية، سورة يقرأها المسلمون ويرددونها، يحفظونها ويتلوها الصغير منهم والكبير الذكر والأنثى، المتعلم وغير المتعلم. (١٦) إنها: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ: وَأُمُّ الْقُرْآنِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالشِّفَاءُ النَّامُ، وَالذَّوَاءُ النَّافِعُ، وَالرَّقِيَّةُ النَّامَّةُ، وَمِفْتَاحُ الْغِنَى وَالْفَلَاحِ، وَحَافِظَةُ الْقُوَّةِ، وَدَافِعَةُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْخَوْفِ وَالْحَزَنِ لِمَنْ عَرَفَ مِقْدَارَهَا وَأَعْطَاهَا حَقَّهَا. (٢٧) فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، أَوْلَاهَا تَنَاءً وَآخِرُهَا دُعَاءٌ. (٣١)

ثانياً من فضائل سورة الفاتحة:

١ - هي أعظم سورة في القرآن وهي أم القرآن:

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}. ثُمَّ قَالَ لِي: "لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ". ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأَعْلَمَنَّكَ

سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ" [٤١]

٢ - بل هي أعظم ما نزل من الوحي مطلقاً:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، أَنَّ أَبِي بِنَ كَعْبٍ قَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، أَمَّ الْقُرْآنَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنزِلَ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَتْ" [٤٥]

٣ - هي أحدُ النورين اللذين أهداهما اللهُ جل وعلا لرسوله -صلى اللهُ عليه وسلم- ولأُمَّته من بعده:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، سَمِعَ نَفِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَ الْيَوْمَ لَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُوتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ" [٤٦]

٤ - هي رُقِيَةٌ شَافِيَةٌ كَافِيَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ لِأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ:

فَعَنْ أَبِي الْمُتَوَكَّلِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرَةٍ سَافَرُواهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْنُكُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَصَالِحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَنْقُلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ

يَمَشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالِحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَنَذْكَرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَذَكِّرُوا لَهُ، فَقَالَ: "وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُفِيَةٌ"، ثُمَّ قَالَ: 'قَدْ أَصَبْتُمْ، اقسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا' (١٧١)

قال ابن القيم: فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ حُصُولَ شِفَاءِ هَذَا اللَّدِيغِ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ، فَأَغْنَتْهُ عَنِ الدَّوَاءِ، وَرَبَّمَا بَلَغَتْ مِنْ شِفَائِهِ مَا لَمْ يَبْلُغُهُ الدَّوَاءُ. هَذَا مَعَ كَوْنِ الْمَحَلِّ غَيْرِ قَابِلٍ، إِمَّا لِكَوْنِ هَوْلَاءِ الْحَيِّ غَيْرِ مُسْلِمِينَ، أَوْ أَهْلِ بُخْلِ وَلُؤْمٍ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا. (١٨٧)

* وقد عقد ابن القيم رحمه الله فصلاً في كتابه مدارج السالكين: فِي بَيَانِ اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الشِّفَاءِ بِنِ شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ

فَقَالَ: فَأَمَّا اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ: فَإِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، فَإِنَّ مَدَارَ اعْتِبَالِ الْقُلُوبِ وَأَسْقَامِهَا عَلَى أَصْلَيْنِ: فَسَادِ الْعِلْمِ، وَفَسَادِ الْقَصْدِ. وَيَنْتَرَبُّ عَلَيْهِمَا دَاءَانِ قَاتِلَانِ، وَهُمَا الضَّلَالُ وَالْغَضَبُ، فَالضَّلَالُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْعِلْمِ، وَالْغَضَبُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْقَصْدِ، وَهَذَانِ الْمَرَضَانِ هُمَا مَلَائِكُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ جَمِيعِهَا، فَهَدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ سُؤَالُ هَذِهِ الْهَدَايَةِ أَفْرَضَ دُعَاءٍ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ، وَأَوْجِبَهُ عَلَيْهِ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، لِشِدَّةِ ضَرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ إِلَى الْهَدَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُ هَذَا السُّؤَالِ مَقَامَهُ. وَالنَّحْوُ بِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَعَمَلًا وَحَالًا يَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ فَسَادِ الْقَلْبِ وَالْقَصْدِ، وَلَا شِفَاءَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِدَوَاءِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. . . . ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْضُ لُهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَنْدَارِكُهُمَا الْعَبْدُ تَرَامِيًا بِهِ إِلَى النَّفْسِ وَالْأَبْدَانِ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكَبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} وَدَوَاءُ الْكَبْرِ بِ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تَدْفَعُ الرِّيَاءَ {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} تَدْفَعُ الْكَبْرِيَاءَ.

فَإِذَا عُوْفِي مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} عُوْفِي مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِيهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ. (٢٩٧)

وَأَمَّا تَضْمُنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ فَتَذَكَّرُ مِنْهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّجْرِبَةُ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ السَّابِقَ، ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا شَهَادَةُ التَّجَارِبِ بِذَلِكَ فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا مِنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي أُمُورًا عَجِيبَةً، وَلَا سِيَّمَا مُدَّةَ الْمَقَامِ بِمَكَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعْزِضُ لِي اللَّامُ مُزْعِجَةً، بِحَيْثُ تَكَادُ تَقْطَعُ الْحَرَكَةَ مِنِّي، وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ وَغَيْرِهِ، فَأَبَادِرُ إِلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، وَأَمْسَحُ بِهَا عَلَى مَحَلِّ اللَّامِ فَكَأَنَّهُ حَصَاةٌ تَسْقُطُ، جَرَّبْتُ ذَلِكَ مِرَارًا عَدِيدَةً، وَكُنْتُ آخِذًا قَدْحًا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمٍ فَأَقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةَ مِرَارًا، فَأَشْرِبُهُ فَأَجِدُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْقُوَّةِ مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ فِي الدَّوَاءِ، وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. (٢٩٧)

٥- هي الجامعة المانعة والحجة الدامغة:

قال ابن القيم: وَتَاللَّهِ لَا تَجِدُ مَقَالََةً فَاسِدَةً، وَلَا بِدْعَةً بَاطِلَةً إِلَّا وَفَاتِحَةَ الْكِتَابِ مُتَضَمِّنَةً لِرَدِّهَا وَإِطْطَالِهَا بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ، وَأَصَحِّهَا وَأَوْضَحِّهَا، وَلَا تَجِدُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَدْوِيَّتِهَا مِنْ عِلَلِهَا وَأَسْقَامِهَا إِلَّا وَفِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِفْتَاحَهُ، وَمَوْضِعَ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْزِلًا مِنْ مَنْازِلِ السَّائِرِينَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا وَبِدَائِيَّتُهُ وَنَهَائِيَّتُهُ فِيهَا. وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ شَأْنَهَا لِأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ. وَمَا تَحَقَّقَ عَبْدٌ بِهَا، وَاعْتَصَمَ بِهَا، وَعَقَلَ عَمَّنْ تَكَلَّمَ بِهَا، وَأَنْزَلَهَا شِفَاءً تَامًا، وَعِصْمَةً بِالْغَةِ، وَنُورًا مُبِينًا، وَفَهَمَهَا وَفَهَمَ لَوَازِمَهَا كَمَا يَنْبَغِي وَوَقَعَ فِي بِدْعَةٍ وَلَا شِرْكَ، وَلَا أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ إِلَّا لِمَامًا، غَيْرَ مُسْتَقَرٍّ. هَذَا، وَإِنَّهَا الْمِفْتَاحُ الْأَعْظَمُ لِكُنُوزِ الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّهَا الْمِفْتَاحُ لِكُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ يُحْسِنُ الْفَتْحَ بِهَذَا الْمِفْتَاحِ، وَلَوْ أَنَّ طُلَّابَ الْكُنُوزِ وَقَفُوا عَلَى سِرِّ هَذِهِ السُّورَةِ، وَتَحَقَّقُوا بِمَعَانِيهَا، وَرَكَّبُوا لِهَذَا الْمِفْتَاحِ أَسْنَانًا، وَأَحْسَنُوا الْفَتْحَ بِهِ، لَوَصَلُوا إِلَى تَنَاوُلِ الْكُنُوزِ مِنْ غَيْرِ مُعَاوِقٍ، وَلَا مَمَانِعٍ. (٢٩٧)

٦ - هي ركن من أركان الصلاة:

عَنْ عَبْدِ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ" [١٢٢]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: " قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمَدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجْدُنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" [١٢٣]

قال ابن القيم: فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لطارت فرحاً وسروراً بقول ربها وفاطرها ومعبودها: "حمدني عبدني وأثنى علي عبدي ومجدني عبدي". [١٤٦]

* * * إِنَّ سُوْرَةَ بِهَذَا الْفَضْلِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ تُحْتَمُّ عَلَيْنَا أَنْ نَقْفَ عَلَى كُنُوزِهَا وَنَدْرِكَ مَعَانِيَهَا وَنُوثِقَ صِلَتْنَا بِهَا وَنَهْتَدِيَ بِهَدَايَا لِنَحَقِّقَ أَثْرَهَا.

ثالثاً مجمل ما تضمنته سورة الفاتحة:

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية وحظه من الهداية على قدر حظه من الرحمة فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته سبحانه وتعالى. . فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عوام المتعبدين. [١٥٦]

واعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العلية أتم اشتمالاً، وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا

إِلَيْهَا، وَمَدَارُهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ: اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَبُنِيَتِ السُّورَةُ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ، وَالرَّبُّوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ، فَ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ، {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} عَلَى الرَّبُّوبِيَّةِ، وَطَلَبُ الْهَدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، وَالْحَمْدُ يَتَضَمَّنُ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَرَبُّوبِيَّةِ، وَرَحْمَتِهِ. وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ الْمَعَادِ، وَجَزَاءَ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ، حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا، وَتَفَرَّدَ الرَّبُّ تَعَالَى بِالْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَكَوْنِ حُكْمِهِ بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ قَوْلِهِ {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ النَّبَوَاتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ. (١٦٦) . . .

رابعاً تفسير السورة:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هَذَا تَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَمَا أَعْطَانَا. التَّنَاءُ حَقٌّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ نِعَمِهِ وَأَنْوَاعِ آيَاتِهِ عَلَى الْعِبَادِ. فَالْحَمْدُ فِيهِ مَعْنَى الْاعْتِرَافِ الَّذِي هُوَ إِقْرَارٌ مِنَ الْعَبْدِ بِتَقْصِيرِهِ وَفَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ وَاعْتِرَافٌ لِلَّهِ جَلٍّ وَعَلَا بِالْكَامِلِ وَالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَعْبُدُ الْعَبْدُ رَبَّهُ عِبَادَةَ الْمَعْجَبِ بِعَمَلِهِ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْإِعْجَابَ لَا يَتَّفَقُ مَعَ الْاعْتِرَافِ وَالذَّلِّ، وَلَا يَدْخُلُ الْعَبْدُ عَلَى رَبِّهِ مِنْ بَابِ أَوْسَعٍ وَأَفْضَلٍ مِنْ بَابِ الذَّلِّ لَهُ وَالْإِنْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ذَلِكَ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَعَانِي الْعِبَادَةِ الذَّلُّ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ (١٧٦) فَإِنَّ الْعَارِفِينَ كُلَّهُمْ مَجْمَعُونَ عَلَى أَنْ التَّوْفِيقَ أَنْ لَا يَكِلَكَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِكَ، وَالخِذْلَانَ أَنْ يَكِلَكَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِكَ. فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا فَتَحَ لَهُ بَابَ الذَّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ، وَدَوَامَ اللُّجَأِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَرُؤْيَا عِيُوبِ نَفْسِهِ وَجَهْلِهَا وَعَدْوَانِهَا، وَمَشَاهِدَةَ فَضْلِ رَبِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَبِرِّهِ وَغِنَاهُ وَحَمْدِهِ. (١٨٦)

وقد قال سيد الشاكرين -صلى الله عليه وسلم- "لَا أُحْصِي تَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أُثْنِيَتْ عَلَى نَفْسِكَ" (١٩٦) فهذا اعترافٌ منه -صلى الله عليه وسلم- بِالْعَجْزِ عَنِ تَفْصِيلِ التَّنَاءِ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى بُلُوغِ حَقِيقَتِهِ، فَوَكَّلَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لِصِفَاتِهِ لَا نِهَايَةَ لِلتَّنَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّ التَّنَاءَ تَابِعٌ لِلْمُنْتَى عَلَيْهِ وَكُلُّ تَنَاءٍ أَتَى بِهِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ وَطَالَ وَبُلُوغٌ فِيهِ فَقَدْرُ اللَّهِ أَعْظَمُ وَسُلْطَانُهُ أَعَزُّ وَصِفَاتُهُ أَكْبَرُ وَأَكْثَرُ وَفَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ أَوْسَعُ وَأَسْبَغُ. (٢٠٦) فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح. . . ، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد وأفعاله حمد،

وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد، . . .
فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده. (٢١٦)

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ: مَعْنَى {الْحَمْدُ لِلَّهِ} الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ تُونِيهِ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ، بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ، فِي تَصْحِيحِ الْأَلَاتِ لِطَاعَتِهِ، وَتَمْكِينِ جَوَارِحِ أَجْسَامِ الْمُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَغَذَاهُمْ بِهِ مِنْ نَعِيمِ الْعَيْشِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دَوَامِ الْخُلُودِ فِي دَارِ الْمَقَامِ فِي النِّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَلَرَبَّنَا الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْلًا وَآخِرًا. (٢١٦)

و{الْحَمْدُ لِلَّهِ} تَاءٌ أَنْتَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضَمْنِهِ أَمْرَ عِبَادِهِ أَنْ يُنْشِئُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}. (٢١٧)

وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لاسْتِغْرَاقَ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْحَمْدِ، وَصُنُوفِهِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ" الْحَدِيثَ.

وقوله تعالى: {الله}: اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و "الله" اسم ربنا عز وجل؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه. أي المعبود حبا، وتعظيمًا. (٢٤٦)

{رَبِّ الْعَالَمِينَ} وَالرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى. (٢٥٥)

فالربُّ: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور. (٢٦٦)

وَالْعَالَمِينَ: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَالَمُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَالْعَوَالِمُ أَصْنَافُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. (٢٧٧) ووصفوا بذلك؛ لأنهم

عَلَّمَ عَلَى خَالِقِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ: عَلَى قُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رَبُّوبِيَّتِهِ. (٢٨١)

وَقَوْلُهُ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} {الرحمن} أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن "فعلان" الذي يدل على السعة. و {الرحيم} أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن "فعليل" الدال على وقوع الفعل، فهنا رحمة هي صفته. هذه دلل عليها {الرحمن}؛ ورحمة هي فعله. أي إيصال الرحمة إلى المرحوم. دلل عليها {الرحيم}. (٢٩١)

فَوَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى بَعَدَ "رَبِّ الْعَالَمِينَ"، بِأَنَّهُ "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي اتِّصَافِهِ بِ"رَبِّ الْعَالَمِينَ" تَرْهِيْبٌ قَرَنَهُ بِ"الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، لِمَا تَضَمَّنَ مِنَ التَّرْعِيْبِ، لِيَجْمَعَ فِي صِفَاتِهِ بَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْهُ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ أَعْوَنَ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَمْنَعًا، كَمَا قَالَ: "نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ". وَقَالَ: "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ". (٣٠١)

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ "مَلِكُ الدُّنْيَا" لِأَنَّ يَوْمَ الدِّينِ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ فِيهِ مُنَازَعَةً وَهُوَ الْيَوْمُ الْأَعْظَمُ فَمَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَضَعُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ. (٣١١)

الدِّينِ: الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْحِسَابِ بِهَا. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَكُونُ مَالِكٌ وَلَا قَاضٍ وَلَا مُجَازٍ غَيْرُهُ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. (٣٢١)

وَتَخْصِيصُ الْمَلِكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النَّبَأُ: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٨]، وَقَالَ: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]. (٣٣١)

وفي قوله تعالى: {مالك} قراءة سبعية، ومنها: {مَلِكٌ}، و "الملك" أخص من "المالك" . . وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن من الخلق من يكون ملكاً،

ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومن الناس من يكون مالكا، ولا يكون ملكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عز وجل مالكٌ ملكٌ.

ومن فوائد الآية: إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: (مالك يوم الدين) ومنها: حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون. (٢٣٤)

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. هذا إقرارٌ من العبد وإعلانٌ والتزامٌ بإفراد الله بالعبادة والتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله، دقيقه وجليله، وإعلانٌ والتزامٌ بالاعتماد عليه، وتفويض جميع الأمور إليه، فله سبحانه نخشع ونذل ونستكين. (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) تجمع الديانة والشريعة، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) تجمع الإخلاص والتوكل والتفويض لله جل وعلا. (٢٣٥) وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَهُوَ {إِيَّاكَ}، وَكُرِّرَ؛ لِلإِهْتِمَامِ وَالْحَصْرِ، أَي: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ. وَالَّذِينَ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشَّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. (٢٣٦) و" نَعْبُدُ" مَعْنَاهُ نَطِيعٌ، وَالْعِبَادَةُ الطَّاعَةُ وَالتَّذَلُّ. وَطَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا لِلسَّالِكِينَ. وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" أَي نَطْلُبُ الْعَوْنَ وَالتَّأْيِيدَ وَالتَّوْفِيقَ. (٢٣٧)

من فوائد الآية: قال ابن القيم: فَانْفَعِ الدُّعَاءَ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ إِسْعَافُهُ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ، وَجَمِيعُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مَدَارُهَا عَلَى هَذَا، وَعَلَى دَفْعِ مَا يُضَادُّهُ، وَعَلَى تَكْمِيلِهِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ، فَتَأَمَّلْهَا. وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. (٢٣٨)

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} اهْدِنَا: دُعَاءٌ وَرَغْبَةٌ مِنَ الْمَرْثُوبِ إِلَى الرَّبِّ، وَالْمَعْنَى: دُلَّنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَرْشِدْنَا إِلَيْهِ، وَأَرْنَا طَرِيقَ هِدَايَتِكَ الْمَوْصِلَةَ إِلَى أَنْسِكَ وَقُرْبِكَ. (٢٣٩) وَالْهِدَايَةُ هَاهُنَا: هِدَايَةُ الْإِرْشَادِ وَالتَّوْفِيقِ. (٤٠)

قال أبو جعفر الطبري: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. [٤١]

قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، أن يكونا معنيًا به: وَفَقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَقَّتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ، من قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ. لأن من وُقِّقَ لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصدّيقين والشهداء، فقد وُقِّقَ للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وكلّ عبدٍ لله صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم. [٤٢]

من فوائد الآية: بَيَانُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى سَعَادَتِهِ إِلَّا بِاسْتِقَامَتِهِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ إِلَّا بِهِدَايَةِ رَبِّهِ لَهُ كَمَا لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى عِبَادَتِهِ بِمَعُونَتِهِ فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَّا بِهِدَايَتِهِ. [٤٣]

- فَالْهِدَايَةُ: هِيَ الْبَيَانُ وَالذَّلَالَةُ، ثُمَّ التَّوْفِيقُ وَالْإِلْهَامُ، فَسُؤَالُ الْهِدَايَةِ مُتَضَمِّنٌ لِحُصُولِ كُلِّ خَيْرٍ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ. [٤٤]

- وَذَكَرَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مُفْرَدًا مُعَرَّفًا تَعْرِيفَيْنِ: تَعْرِيفًا بِاللَّامِ، وَتَعْرِيفًا بِالْإِضَافَةِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ تَعْيُنَهُ وَأَخْتِصَاصَهُ، وَأَنَّهُ صِرَاطٌ وَاحِدٌ، وَأَمَّا طُرُقُ أَهْلِ الْعُزْبِ وَالضَّلَالِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْمَعُهَا وَيُفْرِدُهَا، كَقَوْلِهِ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] فَوَحَّدَ لَفْظَ الصِّرَاطِ وَسَبِيلِهِ، وَجَمَعَ السُّبُلَ الْمُخَالَفَةَ لَهُ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- خَطًّا، وَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣] " وَهَذَا لِأَنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى اللَّهِ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَلَوْ أَتَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَاسْتَفْتَحُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ، فَالطَّرِيقُ عَلَيْهِمْ مَسْدُودَةٌ،

وَالْبَابُ عَلَيْهِمْ مُغْلَقَةٌ إِلَّا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الْوَاحِدِ، فَإِنَّهُ مُتَّصِلٌ بِاللَّهِ، مُوصِلٌ إِلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر: ٤١] قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ صِرَاطٌ إِلَى مُسْتَقِيمٍ. (٤٥١)

- وَلَمَّا كَانَ سُؤَالَ اللَّهِ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلَهُ أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ: عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالشَّانَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمَجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عُبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ، فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ، تَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ. (٤٦٦)

- وَقَدْ جَمَعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهِيَ التَّوَسُّلُ بِالْحَمْدِ، وَالشَّانَاءِ عَلَيْهِ وَتَمَجِيدِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ جَاءَ سُؤَالَ أَهْلِ الْمَطَالِبِ، وَأَنْجَحَ الرَّغَائِبِ وَهُوَ الْهِدَايَةُ بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ، فَالدَّاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ. (٤٧١)

- فَبِهَذَا الطَّرِيقِ الْمُجْمَلِ "الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ" يُعَلِّمُ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَبَاطِلٌ، وَهُوَ مِنْ صِرَاطِ الْأُمْتِنِ: الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ، وَأُمَّةِ أَهْلِ الضَّلَالِ، أَيِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. (٤٨١)

{صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }

صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَصَفُّهُمْ وَنَعْنُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ، وَأَمْتِنَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ، فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَهُمْ الَّذِينَ فَقدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَأَكَّدَ الْكَلَامُ بِلَا لَيْدَلٍّ عَلَى أَنَّ تَمَّ مَسَلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ، وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. (٤٩١)

من فوائد الآية: - انْقَسَمَ النَّاسُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْحَقِّ، وَإِمَّا جَاهِلًا بِهِ، وَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِمُوجِبِهِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ، فَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الْمُكَلِّفِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا الْبَتَّةَ، فَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَامِلُ بِهِ هُوَ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي زَكَّى نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْمُفْلِحُ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩] وَالْعَالِمُ بِهِ الْمُتَّبِعُ هَوَاهُ هُوَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ، وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ هُوَ الضَّالُّ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ ضَالٌّ عَنْ هِدَايَةِ الْعَمَلِ،

وَالضَّالُّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لِضَّلَالِهِ عَنِ الْعِلْمِ الْمَوْجِبِ لِلْعَمَلِ، فَكُلُّ مِنْهُمَا ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ تَارِكَ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ أَوْلَىٰ بِوَصْفِ الْغَضَبِ وَأَحَقُّ بِهِ. (١٥٠)

- {فائدة في غاية الروعة}: وَلَمَّا كَانَ طَالِبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ طَالِبًا أَمَرَ أَكْثَرَ النَّاسِ نَاكِبُونَ عَنْهُ، مُرِيدًا لِسُلُوكِ طَرِيقٍ مُرَافِقُهُ فِيهَا فِي غَايَةِ الْقَلَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُودَةٌ عَلَىٰ وَحْشَةِ التَّفَرُّدِ، وَعَلَىٰ النَّاسِ بِالرَّفِيقِ، نَبَهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الرَّفِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ {أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} فَأَضَافَ الصِّرَاطَ إِلَى الرَّفِيقِ السَّالِكِينَ لَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِيَزُولَ عَنِ الطَّالِبِ لِلْهُدَايَةِ وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ وَحِشَةُ تَفَرُّدِهِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَبَنِي جَنَسِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ رَفِيقَهُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ هُمُ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَكْتَرِبُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْآقِلُونَ قَدْرًا، وَإِنْ كَانُوا الْكَثَرِينَ عَدَدًا،

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: " عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقَلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ "، وَكَلَّمَا اسْتَوْحِشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانظُرْ إِلَى الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَأَحْرِصْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغَضَّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَبِيلِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَى التَّفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِنِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى مَنْ أَنعَمَ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ أَيَّ قَدْ أَنعَمْتَ بِالْهُدَايَةِ عَلَى مَنْ هَدَيْتَ، وَكَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً مِنْكَ، فَاجْعَلْ لِي نَصِيبًا مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَاجْعَلْنِي وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِإِحْسَانِهِ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: كَمَا يَقُولُ السَّائِلُ لِلْكَرِيمِ: تَصَدَّقْ عَلَيَّ فِي جُمْلَةٍ مِنْ تَصَدَّقْتَ عَلَيْهِمْ، وَعَلَّمْنِي فِي جُمْلَةٍ مِنْ عَلَّمْتَهُ، وَأَحْسِنْ إِلَيَّ فِي جُمْلَةٍ مِنْ شَمَلْتَهُ بِإِحْسَانِكَ. (١٥١)

- وقوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} يَتَضَمَّنُ بَيَانَ طَرَفِي الْإِنْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَنَّ الْإِنْحِرَافَ إِلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ انْحِرَافٌ إِلَى الضَّلَالِ الَّذِي هُوَ فَسَادُ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِقَادِ وَالْإِنْحِرَافَ إِلَى الطَّرَفِ الْآخَرَ انْحِرَافٌ إِلَى الْغَضَبِ الَّذِي سَبَبُهُ فَسَادُ الْقُصْدِ وَالْعَمَلِ. (١٥٢)

- [١] دروس للشيخ صالح بن حميد (٢ / ٤٠).
- [٢] زاد المعاد (٣١٨/٤ - ٣١٩).
- [٣] القواعد النورانية (ص: ١٢٤).
- [٤] رواه البخاري (٤٤٧٤).
- [٥] رواه أحمد (٣٥٧ / ٢)، والنسائي (١١١٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٩١ / ٢).
- [٦] رواه مسلم (٨٠٦) (نقيضا) أي: صوتا كصوت الباب إذا فتح.
- [٧] رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) و قَلْبَةً (أي علة).
- [٨] مدارج السالكين (٧٨ / ١).
- [٩] مدارج السالكين (٧٦ - ٧٨) باختصار.
- [١٠] مدارج السالكين (٨٠ / ١).
- [١١] زاد المعاد (٣١٨/٤ - ٣١٩).
- [١٢] رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).
- [١٣] رواه مسلم (٣٩٥).
- [١٤] الصلاة وأحكام تاركها (ص: ١٤٢).
- [١٥] الفوائد لابن القيم (ص: ٢٠).

- [١٦٦] مدارج السالكين (١ / ٣١).
- [١٧٧] عبد الباري الثبتي خطيب المسجد النبوي.
- [١٨٨] الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧).
- [١٩٩] رواه مسلم (٤٨٦).
- [٢٠٠] شرح النووي على مسلم (٤ / ٢٠٤).
- [٢١١] طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٢٥)
- [٢٢٢] تفسير الطبري (١ / ١٣٥)
- [٢٢٣] تفسير ابن كثير (١ / ١٢٨)
- [٢٢٤] تفسير العثيمين (١ / ٩)
- [٢٢٥] تفسير ابن كثير (١ / ١٣١)
- [٢٢٦] تفسير العثيمين (١ / ١٠)
- [٢٢٧] تفسير ابن كثير (١ / ١٣١).
- [٢٢٨] تفسير العثيمين (١ / ١٠).
- [٢٢٩] تفسير العثيمين (١ / ٥).
- [٢٣٠] تفسير القرطبي (١ / ١٣٩).
- [٢٣١] مجموع الفتاوى (٦ / ٢٦٦).

- ([٣٢]) تفسير القرطبي (١ / ١٤٣).
- ([٣٣]) تفسير ابن كثير (١ / ١٣٤).
- ([٣٤]) تفسير العثيمين (١ / ١٢ - ١٣).
- ([٣٥]) دروس للشيخ صالح بن حميد (٦ / ٤٠).
- ([٣٦]) تفسير ابن كثير (١ / ١٣٤).
- ([٣٧]) تفسير القرطبي (١ / ١٤٥).
- ([٣٨]) مدارج السالكين (١ / ١٠٠).
- ([٣٩]) تفسير القرطبي (١ / ١٤٧).
- ([٤٠]) تفسير ابن كثير (١ / ١٣٧).
- ([٤١]) تفسير الطبري (١ / ١٧٠).
- ([٤٢]) تفسير الطبري (١ / ١٧١).
- ([٤٣]) الفوائد لابن القيم (ص: ١٩).
- ([٤٤]) مدارج السالكين (١ / ٣٧).
- ([٤٥]) مدارج السالكين (١ / ٣٧).
- ([٤٦]) مدارج السالكين (١ / ٤٧).
- ([٤٧]) مدارج السالكين (١ / ٤٨).

[٤٨] مدارج السالكين (١ / ٨١)

[٤٩] تفسير ابن كثير (١ / ١٤٠)

[٥٠] مدارج السالكين (١ / ٣١-٣٧)

[٥١] مدارج السالكين (١ / ٤٥-٤٧) باختصار

[٥٢] الفوائد لابن القيم (ص: ١٩)